أعاجيب

لا [1] يريد هذا العهد السعيد أن ينقضى حتى يستنفد عجب الناس ، كما أنه لم يرد أن يبدأ حتى استنفد عجب الناس ، فقد كان هذا البلد آمنا مطمئنا ، راضيا عن أساليب الحكم فيه ، مستشعرا من العزة والكرامة ما يلائم بلدا ناهضا واسع الآمال ، عظيم الأمانى ، قد أراد الإنجليز أن يخدعوه فلم ينخدع ، وأن يكيدوا له فلم يبلغ منه الكيد . فأقبل رئيس الوزراء فرد هذا البلد الناهض القوى الآمل الآمن السعيد إلى شر ما ترد إليه البلاد من تقهقر وضعف ، ومن حزن وخوف ، وشقاء .

وضع نفسه وجماعة من أصحابه موضع المعصومين الذين يعلمون وحدهم كيف يحكمون فلا يخطئون ، وكيف يسوسون فلا يجورون عن القصد ، والذين يعرفون مصالح مصر أكثر مما تعرفها مصر ، والذين يريدون أن يكرهوا مصر على الخير إكراها ، وأن يدفعوها إلى ما يريدون لها وأنفها راغم . وأخذوا يفرضون أنفسهم وسياستهم على مصر فرضا ، بالقوة العنيفة حينا ، وبالمكر المغرى حينا آخر ، حتى

---

(١) ٣ - ٩ - ١٩٣٣

جرت دماء غزيرة وبيعت ضمائر قليلة ، وأخذت مصر تنظر إلى هذا كله واجمة لا ينقضى عجبها أن يقع هذا كله فى القرن العشرين ، وتحت سمع الحضارة الراقية وبصرها . والضمير الإنسانى نائم أو معرِض ، لا يستيقظ ولا يلتفت ولا يتردد فى الإغضاء عما يشهد النيل من تسلط نفر على شعب كامل . وقد نجح رئيس الوزراء عند نفسه نجاحا باهرا انتهى به إلى المرض الطويل الثقيل ، ثم إلى الاستقالة أو العزم على الاستقالة . ونجح صديقه المندوب السامى نجاحا باهرا عند نفسه أيضا انتهى به إلى أن يترك مصر فى الشتاء ويظل معلقا أشهرا ، ثم ينقل إلى بلاد الترك .

نجح الصديقان عند أنفسهما ولكنهما أخفقا إخفاقا شنيعا عند المصريين الذين احتسبوا عند الله ما فقدوا من أبناء أبرار وما احتملوا من مشقة وجهد ، وما قاسوا من عناء وعنف ، واستقلوا هذا كله فى سبيل الاحتفاظ بالكرامة والعزة ، وفى سبيل الوصول إلى الحرية والاستقلال .

كذلك ابتدأ هذا العهد السعيد عجيبا من جميع نواحيه ، فذًّا فى عهود القرن العشرين ، وهو الآن يريد أن ينتهى عجيبا فى جميع نواحيه ، فذًّا فى عهود القرن العشرين أيضا .

رئيس وزارة كان مريضا ، لا يقدر على العمل ، بعيدا لا يستطيع أن يشرف على الأمور ، ولكنه مع ذلك يمسك أزمة الحكم بيد ضعيفة مضطربة ، لا تقدر على إمساكها ولا على تصريفها . وكان على مرضه وضعفه وعجزه ، يمنى نفسه بأن يتم سياسته بمعاهدة يفرضها

على مصر فرضا ، كما فرض عليها غيرها من الأشياء ، فلما حيل بينه وبين ذلك لأن الإنجليز استيأسوا من قدرته على فرض هذه المعاهدة وأخذ المصريين باحترامها ، ثار وفار ، وأعلن السخط والغضب ولمح بالاستقالة ، ثم استحال التلميح تصريحا ، ثم استحال التصريح إلى نذير أخرج رئيس الوزراء عن طوره ، وجعل حديثه أعجوبة الأعاجيب فى هذه الأيام . رئيس وزارة مقيم فى بلد أجنبى قد أعلن ألف مرة ومرة أنه شديد الغيرة على استقلال مصر وكرامتها ، ثم هو لا يتحرج من أن يعرض أمورها الخاصة فى أسواق باريس وفرسايل ، يتحدث بها إلى الصحافيين فى غير تحرج ولا احتياط ولا احتفاظ بالتقاليد . يعلن لصحفى إنجليزى أنه لم يستقل ولكنه سيقابل جلالة الملك . ثم يعلن ذلك نفسه إلى مكاتب روتر فى محطة من محطات باريس أمام جماعة من المصريين والأجانب ، فيهم ممثل وزير الخارجية الفرنسية كأن بين رئيس الوزراء وبين مصر أزمة حادة من أخطر الأزمات ، وأشدها هولا ، فأمرها لا يعنى مصر وحدها ، بل لا يعنى جلالة الملك ووزارته وحدهما ، وإنما يعنى العالم بأسره ، وهو لذلك أمر يلقى إلى مكاتب روتر ليذاع فى أطراف الأرض أن صدقى باشا لم يستقل ولكنه سيرى جلالة الملك . ومعنى هذا أنه حين يرى جلالة الملك إما أن يجاب إلى ما يريد ، وإما أن يستقيل . العفو ! هذا كلام كان يحسن أن يقال فى الاسكندرية أو فى القاهرة ، لا فى فرسايل ولا فى باريس . هذا كلام كان يحسن أن يقال للصحف المصرية ، لا للصحف الإنجليزية ولا لمكاتب روتر . هذا كلام أقل ما يوصف به أنه مجاوز لياقة ، مخالف للتقاليد ، لا ينبغى أن يصدر

من رئيس الوزراء . وكل ما عمل رئيس الوزراء منذ أيام خارج عن اللياقة ، مخالف للتقاليد ، لا ينبغى أن يصدر من رئيس الوزراء . فما كان ينبغى لرئيس الوزراء أن يعلن افتتاح الأزمة الوزارية فى بلد أجنبى ، وما كان ينبغى لرئيس الوزراء أن يعطى أزمته هذا الشكل الذى يحسبه أصدقاؤه وأنصاره عظيما خطيرا ، وهو فى الحقيقة مضحك يسير .

فإن عند أوربا وغير أوربا من الأزمات والمشكلات ما هو أهم وأخطر من أزمة صدقى باشا ومشكلة صدقى باشا . وليس اعتزال صدقى باشا للحكم ، أو احتفاظ صدقى باشا بالحكم ، من الأمور التى يتوقف عليها مصير السلم فى أطراف الأرض ، وليس مما يحسن برئيس وزارة مهما كان قويا أن يتحدث إلى الأجانب عن أزمته الوزارية بهذه اللهجة التى تؤذن بالقوة والعنف ، والقدرة على التحدى والإحراج ، فكيف به إذا كان ضعيفا قد خذلته الظروف وتخلى عنه الأولياء ؟

قلت لك إن هذا العهد السعيد يريد أن ينتهى عجيبا مخالفا للمألوف كما بدأ عجيبا مخالفا للمألوف ، ولكن الذى دعا إلى أن يبدأ هذا العهد السعيد عجيبا شاذا هو إغراق رئيس الوزراء فى الثقة بنفسه ، والاطمئنان إلى من كان يمده من قوه وتأييد . والذى يدعو إلى أن يكون ختام هذا العهد عجيبا مخالفا للمألوف هو إغراق صدقى باشا فى اليأس وخروجه عن طوره أمام هذا الإخفاق المنكر الذى لم يكن يقدره ولا يحسب له حسابا . ولو لم يكن رئيس الوزراء قد

أخرجه اليأس والإخفاق عن طوره لما تورط فى هذه الألوان من التناقض التى تورط فيها منذ أيام ، فقد كان يوم الثلاثاء يعلن إلى مكاتب الأهرام أن لديه أوثق التأكيدات بأن تغيير المندوب السامى لا يغير السياسة البريطانية فى مصر ، فإذا هو يوم الجمعة يتحدث إلى مكاتب روتر ومكاتب الأهرام فيعلن إليهما أن كل ما يتمناه هو ألا يعدل المندوب السامى الجديد عن سياسة المندوب السامى القديم . تبارك الله . وأوثق التأكيدات ، ماذا صنع الله به ؟ لقد كان مقنعا يوم الثلاثاء ، فذاب يوم الأربعاء والخميس . وأصبح الباشا يوم الجمعة وأمسى وهو يتمنى أن يحتفظ المندوب السامى الجديد بسياسة المندوب السامى القديم . وأكبر الظن أن رئيس الوزراء سيصل إلى الإسكندرية يوم الثلاثاء فيستيقن بأنه لا يستطيع أن يتمنى ولا بد له من أن يطمئن إلى اليأس ، ويظفر بأوثق التأكيدات أن تغيير المندوب السامى سيغير السياسة البريطانية فى مصر ، وسيحور الصلة بين دار المندوب السامى وبين الشئون المصرية تحويرا كبيرا ، لا لأن الإنجليز يريدون ذلك أو يأبونه ، بل لأن السياسة التى أقامها صدقى باشا والسير برسى لورين قد انتهت من الفشل والإخفاق إلى حيث لم يبق بد من العدول عنها ، واستئناف الدوران فى تلك الدائرة التى رسمها الإنجليز لأنفسهم لعلهم أن يجدوا منها مخرجا . والظريف من أمر رئيس الوزراء أنه نسى – ولعل المرض هو الذى أنساه ، أو لعل اليأس هو الذى أنساه – أن استجداء الإنجليز شيء لا يليق بصاحب الرد التاريخى البديع على المستر مكدونالد . فالإنجليز قوم لا يتمنى عليهم صدقى باشا ، إنما يصدر إليهم الأمر ، وما ينبغى لصدقى باشا أن يتمنى

على الإنجليز أن يحفظوا لمندوبهم السامى الجديد سياسة مندوبهم السامى القديم ، وإنما ينبغى له أن يأمرهم بذلك أمرا ، فإما أطاعوا فكان السلم ، وإما عصوا فكان رد تاريخى بديع ، كذلك الرد التاريخى البديع الذى رمى به صدقى باشا منذ ثلاثة أعوام فى وجه الإنجليز فتلقوه خاضعين خاشعين .

كل شىء يحول ، فقد يكون رئيس الوزراء قويا منذ ثلاثة أعوام ، يتحدى الإنجليز ويقفهم عند ما يرسم من الحدود ، ثم يصبح رئيس الوزراء ضعيفا بعد ثلاثة أعوام ، يتمنى على الإنجليز فى محطة من محطات باريس – ويشهد العالم كله على هذا التمنى – ألا يغيروا سياستهم فى مصر بتغيير المندوب ثم صدقنى بعد ذلك وصدق رئيس الوزراء حين يقول لك إن الوزارة القائمة لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى الآن ، وأن عندنا أوثق التأكيدات بأن السياسة البريطانية لن تتغير بتغيير المندوب .

ستعجز من غير شك عن أن تلائم بين هذه المتناقضات ولكن لا تنس أن هذا العهد السعيد يريد أن ينتهى عجيبا غريبا كما ابتدأ عجيبا غريبا